

الفصل الأول

الوجهة والبوصلة وخطة الطيران





الفصل الأول: الوجهة والبوصلة وخطة الطيران



1- أهداف كتاب العادات السبع:

قبل الدخول في العادات السبع للأسر الأكثر فاعلية حدد ستيفن كوفي أهداف كتابه في ثلاثة أهداف:

1- رؤية واضحة لوجهتك.

2- خطة للطيران.

3- البوصلة الهادية.

أولاً: رؤية واضحة لوجهتك:

يقول كوفي: «ربما تحاول الإبقاء على زواجك أو حتى إعادة بنائه، أو ربما يكون زواجك ناجحاً بالفعل وأنت تريد أن تجعله أكثر إرضاءً أو إثارةً، وقد تتمنى أن يؤدي أبنائك مهامهم وواجباتهم وهم سعداء، دون الحاجة إلى أن يذكرهم أحد بذلك، وربما تشعر بالتحدي الذي يواجهك وأنت تحاول القيام بعدة أدوار تتناقض مع بعضها البعض بوضوح في حياتك الأسرية: كدور الأب والقاضي والحكم والمؤدب والصديق.

وربما تحاول ببساطة إيجاد حلول حيادية، وقد توشك مخاوفك المادية على أن تتغلب عليك وتستنزف كل وقتك ومشاعرك، وربما تكون المشكلة هي غياب المشاعر العاطفية والروحية من حياة أسرتك، وربما تكون مشاعر زواجك موشكة على الموت أو أنها ماتت، ربما تحاول أن تبذل كل ما بوسعك كي تجعل كل شيء على ما يرام، لكن يبدو أن ليس شيئاً يتحسن، أو ربما تهتم بأمور عائلتك اهتماماً شديداً، لكنك لا تعرف كيف تقدم العون دون أن تفسد الأمور وتزيد الطين بلة، وربما تكون قد عانيت في حياتك من سوء المعاملة أثناء نشأتك أو في زواجك، وتريد بإصرار وتصميم أن تضع حداً لهذا لكنك لا تجد النموذج الصحيح، وربما تواجه بعضاً من هذه الضغوط مجتمعة ولا تجد حلاً في التخلص منها مهما كان موقف الأسرة».



ثم بعد أن عدد المشكلات الأسرية، قال: «ما يبشر بالخير ويزرع الأمل في القلوب هو: أن الرؤية السديدة تتغلب على المصاعب؛ لهذا أود أن أطلعك معي على الطريقة التي تمكّنت من خلالها أسر كثيرة حول العالم من خلق شعور بالرؤية والمبادئ المشتركة، وذلك من خلال وضع رسالة للحياة الأسرية، وسوف أريك كيف تُعد هذه الرسالة، قد تكون هذه الرسالة هي الوجهة الحقيقية التي أرادت أسرتك بلوغها، والمبادئ التي تنطوي عليها هذه الرسالة ستصبح هي الخطوط العامة الإرشادية التي ستقودك إلى وجهتك النهائية، والفكرة تكمن في تكوين رؤية يتقاسمها كل أفراد الأسرة، وعندما تكون الوجهة واضحة ستكون لديك القدرة - عند الانحراف عن المسار المعد للرحلة - على العودة إليه مرارًا وتكرارًا، فالرحلة نفسها تُعدُّ جزءًا من الوجهة النهائية، والاثنان كلٌّ لا يتجزأ - كيف تسافر؟ وأين ستصل؟ متساويان في الأهمية».

ثانيًا: خطة الطيران:

ثم يمضي كوفي في تمثيل مسيرة الأسرة برحلة طيران، وهو مثال جميل وموضح لما يريد إيصاله، ويقول: «من الضروري أيضًا أن تكون لديك خطة للطيران مبنية على المبادئ التي ستمكنك من الوصول إلى الوجهة التي حددتها»، ثم يحكي قصة مؤثرة، كيف أن صديقًا له كان يعاني متاعب جمّة مع ابنه المراهق، وعندما استمع إليه بتعاطف، أحبّ ابنه دون قيد أو شرط ووفقًا لطبيعة ذلك الابن - وذلك بأن عقد النية على ذلك في طوايا عقله وقلبه، عندها استرد ابنه، وكما اكتشف صديقه فإن هناك مبادئ أساسية تحكم الاتصالات الإنسانية، والتعايش مع تلك المبادئ أو الوصايا الإلهية أمر في غاية الأهمية، إذا ما أردنا الوصول إلى مستوى أمثل للحياة الأسرية، كان المبدأ الذي أحلّ به صديقه هو مبدأ الاحترام، وهو مبدأ أساسي، والابن أيضًا أحلّ بهذا المبدأ، لكن اختيار الأب لمحاولة التعايش مع هذا المبدأ من خلال الإنصات لابنه وفهمه بصدق وصبر غير الموقف تمامًا.

والعمل بمبدأ الاحترام والقدرة على الإنصات للآخر بصدق وصبر عادة من بين العادات التي يمارسها أكثر الناس فاعلية في كل مناحي الحياة، ويقول كوفي: «إن العادات السبع للأسر الأكثر فاعلية تعتمد تلك المبادئ العامة غير المرتبطة بزمان، والدامغة (أي التي لا يمكن النجاح بدونها) والتي تحكم عالم العلاقات الإنسانية، تمامًا كما يحكم قانون الجاذبية



حركة سقوط الأجسام في العالم المادي، تلك المبادئ تحكم كل شيء في الحياة، وهي جزء لا يتجزأ من كيان الأشخاص والأسر والمؤسسات والحضارات التي كان النجاح رفيقها، وكانت جزءاً منها طوال الدرب، وهذه المبادئ ليست أسلوبياً أو أدوات سريعة الثبوت، وليست مجموعة من قوائم افعل ولا تفعل، إنما هي عادات، أي: أنماط موجودة في العقل والضمير، تتفق معها وتسير على هديها كل الأسر الناجحة، والإخلاق بتلك المبادئ يضمن الفشل الأسري، بل والشخصي، وكما قال تولستوي -الأديب الروسي الشهير- في «أنا كارينينا»: «إن الأسر السعيدة متشابهة، أما الأسر التعيسة فهي تستشعر التعاسة على طريقها الخاصة». إن الأسر السعيدة تتقاسم سمات مشتركة دائمة، وهذه السمات هي ما يندرج تحت "العادات السبع" في كتاب كوفي، وأحد المبادئ المهمة التي تعلمها صديقه من مشكلته مع ابنه تسمى جوهر التغيير، وهي: أن أي تغيير حقيقي دائم لا يبدأ إلا من داخل النفس ثم ينطلق إلى خارجها، فبدلاً من أن يحاول صديقه تغيير ابنه أولاً حاول تغيير ذاته، وكانت تلك المحاولة سبباً في تغيير ابنه بعد ذلك. إن مبدأ التغيير من الداخل إلى الخارج هذا هو جوهر كل عادة من العادات السبع.

فمن خلال المداومة على تطبيق المبادئ يمكنك أن تحقق تغييراً إيجابياً في أية علاقة أو أي موقف، بأن تكون بنفسك عاملاً من عوامل التغيير، وهذه المداومة تحقق دائماً نتائج جيدة، ذلك أن المبادئ يدرکها الناس بالبديهة، أو يعرفونها في قرارة أنفسهم، والمداومة عليها تساعدهم على سبر غور ذواتهم وإمكاناتهم الحقيقية، وبالتالي تطلق العنان لقدراتهم الكامنة.

ومن أهم الأسباب التي تجعل المنهج -التغيير من الداخل إلى الخارج- حيويًا في أيامنا هذه أن المجتمع تغير كثيرًا عن الماضي، فقد كان من الممكن تنشئة أسر ناجحة من الخارج إلى الداخل؛ لأن المجتمع كان داعماً نصيراً لقيم الأسرة.. كان بحرًا لا ينضب من المثل العليا والنماذج الرائدة والإعلام القيمي والقوانين التي صيغت لصالح الأسرة، وأنظمة الدعم كانت تجاهد للحفاظ على الزيجات، وإيجاد حلول ناجحة عندما كانت تثور المشكلات في إطار الأسرة، وكانت لا تزال فكرة الزواج الناجح تجول في الخيال، وبذلك كانت تؤثر على العقول، لهذه الأسباب كان من الممكن تنشئة الأسرة من الخارج إلى الداخل، وكان نجاح



الأمر ممكنًا وسهلاً نظرًا للجو العام الداعم لقيم الأسرة، أما الآن فقد تغير المجتمع بصورة حادة، وأصبح الجو العام معولاً من معاول هدم الأسرة.

وانتشرت في المجتمع الأمريكي على مدى الخمسين عامًا الماضية موجات التحول من قيم تناصر الأسرة إلى قيم ضد الأسرة، وأصبحت الطائفة الآن تطير في بيئة باتت معادية للأسرة، وهناك رياح عاتية أطاحت بأسر كثيرة، وقد عرض كوفي هذه الإحصائية في أمريكا: زاد عدد المواليد غير الشرعيين بنسبة 40٪، وزاد عدد الأسر ذات العائل الواحد ثلاثة أضعاف في الخمسين سنة الأخيرة، وزاد معدل الطلاق بمقدار الضعف، وأصبحت نصف الزيجات الحديثة تنتهي بالطلاق، وزادت حالات انتحار المراهقين بنسبة 30٪، وأصبح ربع عدد المراهقين - قبل التخرج من المرحلة الثانوية - يصابون بالأمراض التناسلية. إنها إحصائية مرعبة، ليس هذا فحسب بل تحولت أبرز مشكلات الانضباط في المدارس العامة وفقًا لدراسة حكومية كالآتي:

- كانت سنة 1940: التحدث بدون إذن - إصدار ضجة - الركن في الممرات - عدم الانتظام في الصفوف - مخالفة الزي المدرسي - إلقاء المخلفات - مضغ العلكة.
- أصبحت سنة 1990: تناول العقاقير المخدرة - تناول الكحوليات - الحمل دون زواج - الانتحار - الاغتصاب - العنف - الاعتداء على الآخرين.

بالإضافة إلى كل ذلك انخفضت نسبة الأسر التي يوجد فيها أحد الوالدين مع الأطفال أثناء النهار من 67٪ إلى 17٪، وأصبح الطفل يقضي في المتوسط 7 ساعات أمام التلفاز و5 دقائق مع والده وعشرين دقيقة مع والدته يوميًا!!

وإذا عدنا للمبادئ، فقد قال وايلد هايد ذات مرة: «عادة الاستغلال الذكي للمبادئ المفهومة بعناية هو رأس الحكمة؛ ولذلك فلست بحاجة لتعلم فئات الخطوات، ولست بحاجة للبحث الدائم عن أساليب جديدة أفضل، وكل ما يحتاجه الأمر هو إطار حاكم من المبادئ الأساسية التي تنطبق على أي موقف»، والعادات السبع من شأنها أن تخلق هذا الإطار، والقوة التي تكمن في تلك العادات تنتج من تطبيقها مجتمعة لا منفردة، من خلال هذا الإطار يستطيع المرء تشخيص أي شيء يحدث في أي موقف أسري، ويمكن أيضًا أن



يحدد ما هي الخطوات المبدئية اللازم اتخاذها لعلاج الموقف وتحسينه، هذه العادات لا تقول لك كيف تتصرف، وإنما كيف تفكر!! .. وعندما تفكر بطريقة صحيحة ستعرف كيف تتصرف ومتى تتصرف، ولكن ذلك سيتطلب مهارة، والمهارة ستتطلب ممارسة.

ثالثاً: البوصلة الهادية:

الإطار العام للعادات السبع يؤكد أنك صاحب القدرة الخلاقة التي تشكل ملامح حياتك، وليس أي شخص آخر، ومن خلال دورك القيادي واعتبار ذاتك مثلاً يحتذى يمكنك أن تكون عامل التغيير الأهم في حياتك الأسرية، ولهذا فالعادات السبع ستمكنك من التعرف على أربع منح فريدة واستثمارها، وستجعلك بالفعل عاملاً من عوامل التغيير في حياتك الأسرية، هذه المنح تُكوّن في مجموعها البوصلة أو المؤشر الداخلي التي ستمكنك أنت وأسرتك من البقاء في المسار، وكلما خرجتم عنه ستمكنكم من العودة إليه، هذه المنح ستجعلك قادراً على التعرف على الكيفية التي تؤثّم بها بين حياتك وبين تلك المبادئ العامة، حتى في أكثر الأجواء الاجتماعية تقلباً، وستجعلك قادراً على تحديد رد الفعل المناسب واتخاذها، فما من أحد يستطيع فهم موقفك كما تفعل أنت، أنت ربان الطائرة، أنت الذي ستتعامل مع تقلبات الجو والطقس والرياح التي ستدفع بك وبأسرتك خارج المسار، أنت الذي تملك المعدات التي تؤهلك لفهم ما يجب أن يحدث في أسرتك وكيف تُنفذ ذلك، كل ما تحتاجه هو منهج يمكنك - بل ويدفعك - إلى تطبيق المبادئ على موقفك الأسري.

وبدلاً من أن تعطيك العادات السبع سمكة ستعطيك سنارة وستعلمك كيف تصطاد، وسيتم ذلك من خلال إطلاعك على مجموعة جيدة من المبادئ التي ستساعدك على تطوير قدراتك من أجل الوصول إلى وضع أمثل لحياتك الأسرية.

إسقاط ذلك على إسلامنا:

إن المثال الذي ذكره كوفي من أن رعاية الأسرة مثل قيادة الطائرة التي تطير في وسط الأنواء والأعاصير مثال جميل، ولكي تصل الطائرة بأمان تحتاج كما قال إلى ثلاثة أمور، وهي:

1- **الوجهة:** يقول الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيٰهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾

[البقرة:148]، فوجهة الأسرة كلها - الزوج والزوجة والأبناء - هي: الله - تعالى - ومرضاته، والسبيل لذلك هو فعل الخيرات.



2- **خطة الطيران:** وهي المبادئ التي تسير عليها الأسرة، والمبادئ التي وضعها الإسلام أشمل من التي اقترحها كوفي، فهي تبدأ ببر الوالدين والإحسان إليهما، والذي قرنه الله تعالى بعبادته: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ إِنْ تَعْبُدُوا إِلَٰهًا إِلَّا يَٰهُوَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: 23]، ثم المودة والرحمة بين الزوجين: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: 21]، ثم اللعب والصدقة مع الولد، يقول الإمام على ؑ عن تربية الأولاد: «لاعبه سبعا وأدبه سبعا وصاحبه سبعا، ثم اترك له الحبل على غاربه». (رواه أحمد)، والرحمة مع الصغار، يقول عنها الرسول ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويعرف لعالمنا حقه». (رواه الترمذي).

فالمبادئ التي اقترحها كوفي، مثل: الاحترام والإنصات للآخر بصدق والإيجابية والعطف والمودة (فتح حساب في بنك العواطف) والاعتذار والوفاء بالعهد والحب غير المشروط، ووضوح الهدف والالتزام، والبدء بالأهم فالمهم، (الأولويات)، والتغيير من الداخل إلى الخارج وأنه هو الذي يدوم، والتغلب على الغضب والإساءة والتكاتف والتعاون، كل هذه مبادئ سامية، ولكن مبادئ مثل بر الوالدين والإحسان إليهما، والرحمة بالصغار والصدقة مع المراهق (من سن 14 سنة) هي مبادئ أشمل، يضاف إليها وصايا مثل قوله ﷺ: «**لا تغضب**». (رواه: الشيخان)، ومثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: 11]، وهو التغيير من الداخل إلى الخارج، وقوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 177]، وهناك عشرات من الأمثلة الأخرى عن المبادئ السامية التي هي أشمل من تلك التي اقترحها كوفي.

3- **البوصلة:** إن الإطار العام للعادات السبع يؤكد أنك صاحب القدرة على تشكيل حياتك، ومن خلال دورك القيادي يمكنك أن تكون عامل التغيير في حياتك الأسرية، وفي الإسلام بقول الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه عن الإيجابية والمبادرة: «من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة». (رواه الشيخان)، ويقول تعالى في سورة الحديد: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ



الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴿ [الحديد: 16]، وفيها يدعو الله تعالى عباده للتوبة والعودة إلى الله حتى يبدءوا بداية جديدة.

ويحكى أنه كان هناك لص يسرق البيوت، فسمع وهو يتسلق سور بيت آية سورة الحديد هذه، فقال: والله لقد آن يارب، ثم تاب وأعاد تشكيل حياته وأصبح هو الفضيل بين عياض عابد الحرمين، وعندما يقول الرسول ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته». (رواه الترمذي وأحمد)، فكلا الزوجين من خلال دوره القيادي يمكن أن يكون ليس فقط عامل التغيير في الأسرة ولكنه المسئول عنها كذلك، والمسئولية أشمل من مجرد تغيير الحياة الأسرية؛ المسئولية عن الأسرة تعني عدم ترك الأولاد للمربية، وعدم التغيب عن الأسرة أغلب الوقت بحجة أنه في العمل، والتأكد من أحوال كل أفراد الأسرة وتفقدتها، كما سأل سيدنا زكريا -عليه السلام- مريم عندما وجد عندها فاكهة لم يأت أو أنها بعد: ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: 37].

وإذا كانت البوصلة هي التي تعيد الطائرة إلى المسار إذا حادت عنه، فإن ذلك في الإسلام يمثل النفس اللوامة، التي أقسم الله بها في سورة القيامة: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: 1، 2]، والشدة في كلمة (لوامة) تعني التي صار اللوم لها خلقاً دائماً، فهي دائماً تحاسب صاحبها وتلومه على أي انحراف عن صراط الله المستقيم، وهذه النفس في حالة الأسرة هي أنفُس الزوج والزوجة والأولاد البالغين، حيث يحرصون جميعاً على البقاء على المسار وعدم الانحراف عنه، يقبل بعضهم على بعض يتلاومون: ﴿ فَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ [القلم: 30، 31]، فكل أفراد الأسرة لديهم بوصلة داخلية لتصحيح تصرفاتهم ومسار الأسرة ككل (وهذه هي المراقبة التي ينبغي أن تكون حية دائماً).

2- الأسر الأكثر فاعلية:

كتاب ستيفن كوفي يتحدث عن الأسر الأكثر فاعلية، وهو يشرح معنى -الفاعلية- في الإطار الأسري في كلمات ثلاث: ثقافة أسرية جميلة. وعندما يقول ثقافة فإنه يتحدث عن الروح الأسرية؛ المشاعر والأحاسيس والتفاعل الكيميائي والمناخ الأسري، ويتحدث أيضاً



عن شخصية الأسرة: عمقها - خصائصها - نضج العلاقات فيها، أو الطريقة التي يتعامل بها أفراد الأسرة مع بعضهم البعض، إنها الروح والمشاعر التي تنشأ وتنمو من الأنماط السلوكية الجماعية التي تميز التفاعل الأسري، وهذه الأمور تظهر فوق كتلة غير مرئية من المعتقدات والقيم مثل قمة جبل الجليد الغاطس معظمه تحت الماء.

وعندما يتحدث عن الثقافة الأسرية الجميلة يدرك أن كلمة الجميلة تحمل معاني مختلفة للأشخاص المختلفين، لكنه يصف بها ثقافة جماعية تجعل أفراد الأسرة مقبلين بصدق وإخلاص على الوجود معًا والاستمتاع بذلك، وتجعلهم يكونون لديهم معتقدات وقيماً مشتركة، وتجعلهم يتصرفون ويتفاعلون بأسلوب ناجح يعتمد على تلك المبادئ التي تحكم كل شيء آخر في الحياة، إنه يتحدث عن ثقافة التحول من مفهوم (أنا) إلى مفهوم (نحن)، إن الأسرة ما هي إلا تجربة جماعية بعقلية تتعامل بضمير الجمع (نحن)، والتحرك من أنا إلى نحن يعني إلغاء الاعتماد على الذات إلى الاعتماد المتبادل، وهو أكثر جوانب الحياة الأسرية تحدياً وصعوبة، وما من طريقة تحقق السعادة والرضا مثل الطريقة التي تؤدي إلى حياة أسرية متعاونة متكاتفه.

وعندما تتبع سعادتك من سعادة الآخرين في الأسرة ستدرك أنك تحركت من (أنا) إلى (نحن)، ولكن ما لم تضع أسرتك على رأس أولوياتك فإن هذا التحرك لن يحدث، وكثيراً ما يعني زواج اثنين مجرد إقامتهما معاً تحت سقف واحد دون وجود روح أو مشاعر تربطهما؛ لأن التحرك من الاعتماد على الذات إلى الاعتماد المتبادل (التعاون) لم يحدث، فالثقافة الأسرية الجميلة إذن هي ثقافة الضمير (نحن) .. إنها الثقافة التي تمكن أفراد الأسرة من العمل معاً من أجل تحديد الوجهة والتحرك إليها معاً، والمشاركة وتحقيق فرق في أسر أخرى كذلك، بل وربما في المجتمع الصغير المحيط بها كله، إنها ثقافة تجعلك قادراً على التعامل مع القوى العاتية التي قد تطيح بك خارج المسار، مثل الطقس المتقلب خارج الطائرة (أي الثقافة المجتمعية)، أو مثل ضائقة مالية أو مرض مفاجئ خطير تتعرض له الأسرة، أو الطقس المتقلب داخل قمرة القيادة (مثل الشجار الدائم داخل الأسرة أو انعدام التواصل أو الميل إلى النقد أو الشكوى المستمرة أو المقارنة والمنافسة مع الآخرين).



إسقاط ذلك إسلامياً:

يركز الإسلام على العبادات الجماعية دائماً، فالصلاة في جماعة، والتكافل والزكاة غالباً ما يحتاج إلى مجموعة لكي يصل إلى من يستحقه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقوم به أمة (أي جماعة)، ولكن قد ينسى رب الأسرة تنمية هذه الروح الجماعية داخل أسرته، فهو يصلي في المسجد في جماعة، ويتحرك للخير في جماعة، أما داخل البيت فينسى هذه الروح الجماعية؛ ولذلك فلا بد أن يصلي الأب مع زوجته وأبنائه صلاة النافلة أو صلاة قيام الليل، وقد يصلي معهم صلاة الفريضة-عندما يكون مريضاً- في جماعة، ويشجع زوجته على أن تصلي مع بناتها في جماعة، والتفاعل الأسري هو أن يفتح كل فرد في الأسرة على الآخرين.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، انظر كيف كان يناقش أهم الأمور مع زوجته رضي الله عنهن، وفي الوقت نفسه يلاعب عائشة ويسابقها، وسأل عمر بن الخطاب كأمر للمؤمنين ابنته حفصة عن المجاهدين وكم تصبر الزوجة على فراق زوجها، فأجابته: أربعة أشهر، فأصدر أمراً بأن يرجع المجاهدون كل أربعة أشهر إلى زوجاتهم وأولادهم، فاحرص على هذه الأنماط السلوكية الجماعية داخل الأسرة، بدءاً من كتابة دستور الأسرة الذي يحدد وجهتها وأهدافها، مروراً بكيفية دعم كل فرد في الأسرة للأفراد الآخرين فيما يحاولون تحقيقه من أهداف، وذلك مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2].

وهذا ما يعنيه كوفي بالتحول من الاعتماد على الذات إلى الاعتماد المتبادل (التعاون)، كل فرد في الأسرة يجب أن يعيش آمال الآخرين، بحيث يستمتعون بالتعاون معاً والخروج معاً وبإعداد الطعام معاً، وبمساعدة كل منهم للآخر في ما يحتاجه في عمله أو في دراسته، وليت سعادة أي فرد في الأسرة تتبع من سعادة الآخرين، وإذا كان الرسول ﷺ قد قال: «تبسمك في وجه أخيك صدقة». (رواه مسلم)، وقال ﷺ: «ما من متحابين تلاقيا فتصافحا إلا تحاتت ذنوبهما كما يتحات ورق الشجر». (أي تتساقط، رواه البيهقي في شعب الإيثار)، وأفضل لقمة هي التي يضعها الزوج في فم زوجته، وعندما قال الإعرابي للرسول ﷺ: إن له عشرة من الأولاد ما قبّل أحداً منهم قط. قال له الرسول ﷺ: «وما أملك لك إذا كان الله قد نزع من قلبك الرحمة؟!» (رواه مسلم والترمذي)، أما هو ﷺ فقد كان الحسن والحسين يركبان على



ظهره فيقول: «نعم الجمل جملكم» (رواه أحمد)، وحتى عندما كانا يعتليان ظهره الشريف أثناء السجود كان يطيل السجود حتى ينزلا، فليت هذه المودة والرحمة والسعادة بإسعاد الآخرين تعود لتتكرر على أسرتنا مرة أخرى.

3- أشرك أسرتك معك في التجديد الآن:

يستحسن أن تشرك أسرتك معك من البداية في جهدك لتجديدها، وأضمن لك أن الفهم سيكون أعمق والرابطة ستكون أوثق، والبصيرة والمتعة ستكونان أعظم إذا كان اكتشاف الرغبة في التجديد مشتركاً، ولن تحس زوجتك أو أولادك أنك تفرض عليهم شيئاً إذا شاركوك من البداية، ولن يشعروا بالخوف أو الاستغراب من رغبتك الشديدة في التغيير، فالمشاركة في التعلم ستكون قوة دافعة لك تساعدك على بناء الثقافة الجماعية المنشودة؛ ولهذا فإذا كان في استطاعتك قراءة هذا الكتاب مع أسرتك أو مع جزء من أفرادها، أو إعطاء كل منهم جزءاً ليقراه ويعرضه عليكم في جلسته تجديد الأسرة، بحيث تناقشون الأفكار معاً وتستعرضون بعض القصص المعروضة، بحيث يعرض كل منهم ماذا يعتقد في موقف الأب أو الابن المراهق في القصة، أو تأخذون عادة من العادات السبع وتناقشون بعمق كيفية تطبيقها في أسرتكم.

ويجب احترام مستوى فهم كل فرد من الأسرة على حدة وأنت تناقش معهم الفكرة من تجديد الأسرة في البداية، ولا تنقُص على محتويات الكتاب كما ينقُص البولدوزر على المبنى ليزيله حتى يمكن أن نبني مبنى أجمل مكانه، وضع في اعتبارك أن التعامل مع أسرتك يعني أن يكون البطيء سريعاً والسريع بطيئاً، أي يكون حسب رغبة وقدرة أضعف فرد فيهم.

لكن أنت الخبير بشئون أسرتك، فقد ترى أن وضعك الأسري الحالي لا يتحمل إشراك أي منهم معك في هذه اللحظة، ربما تكون بصدد التعامل مع موضوعات غاية في الحساسية ولا يجوز إشراك الأولاد -حتى البالغين منهم- فيها، حتى لا تهتز لديهم صورة الأم أو صورة الأب، أو قد تكون راغباً في الاطمئنان أولاً أن المادة الموجودة في هذا الكتاب سيكون لها تأثير إيجابي على أسرتك ثم تبدأ بعد ذلك في إشراك الآخرين، أو قد ترى أن من الأفضل البدء بإشراك زوجتك ثم إشراك أبنائك المراهقين بعد ذلك، حسناً.. أنت سيد الموقف، لكن كل ما أريد أن أقوله: إنه بعد سنوات من العمل بالعادات السبع في مواقف شتى أدرك مؤلف



الكتاب - ستيفن كوفي - أنه عندما يشترك الأفراد من البداية في عملية فهم المراد من التجديد، وعندما يشتركون في القراءة وفي المناقشة وفي الحديث وفي الوصول إلى آفاق جديدة بالبصيرة عن ماهية مشكلاتهم الأسرية تبدأ عملية الترابط التي تصبح مثمرة حقاً مع الوقت، وتنمو لدى الجميع روح واحدة متساوية، كأن الكل يقول: «أنا لست كاملاً ولا أنت أيضاً وها نحن نتعلم وننضج معاً»، عندما تطلع باقي أفراد أسرتك عن ما تعلمته عندما قرأت هذا الكتاب - أو أي كتاب مماثل - دون تباؤ أو تأديب لهم ستجعلهم أقرب إلى أن يكونوا على نفس الوجه معك، وسيكون الطريق أمامك آمناً ومفتوحاً لتبدأ التغيير والتجديد، وذلك بأن تغير من ذاتك أولاً ثم تغير الآخرين، ويقول خبراء التنمية البشرية إن أفراد أي مؤسسة لو اشتركوا في صياغة خطة المؤسسة فسوف يتبنونها، أما إذا نزلت إليهم من الإدارة العليا للشركة فسوف يقاومونها، وهكذا الحال في الأسرة.

كما أود أن أضيف الآتي: لا تياس إذا واجهت مقاومة في محاولاتك الأولى، وضع في اعتبارك أنك عندما تجرب شيئاً جديداً مثل تجديد أسرتك ستجد من يقول لك: وما الخطأ فينا؟ أو في أسرتنا؟ أو ما جدوى هذه المحاولة؟ لقد حاولنا كثيراً من قبل، أو: أن المشكلة أن جيلكم لن يفهم جيلنا أبداً، نحن من جيلين مختلفين تماماً، وهذا صحيح إلى حد كبير، الاختلاف أعني، أما محاولة فهم كل جيل للآخر فلا بد منه، وأضيف أيضاً: لا تبدأ محاولة التجديد بأن تقول: قال الله وقال الرسول ﷺ، ليس هذا وقت الاستشهاد بآيات بر الوالدين أو حديث من أحق الناس بحسن صحابتي، هذا الكلام سيأتي وقته بعد أن تعرف زوجتك وأبناءك، (أو تعرفي زوجك وأبناءك) إنك تريد أن تتغير أنت أولاً قبل أن تغيرهم، وأنك تريد أن تجعلهم أسعد وليس أفضل، وأنك تريد أن تكون لأسرتك الأولوية الأولى في حياتك لأنك تحبهم فعلاً، ولأنهم فعلاً أهم شيء في حياتك، وأنك على استعداد أن تصغي إليهم، تصغي إليهم بتعاطف وتفهم، وربما لساعات طويلة كل أسبوع.

4- معجزة شجرة البامبو الصينية (الصبر):

بعد زراعة البذور يظل المزارع الصيني أربع سنوات لا يرى شيئاً على الإطلاق، فيما عدا برعم صغير يخرج من البوصلة المدفونة في الأرض، وفي تلك السنوات الأربع تضرب الشجرة بجذورها الليفية في الأرض، وفي السنة الخامسة قد يصل ارتفاع الشجرة إلى 24



مترًا، وهناك الكثير مما يجري في حياة الأسرة يشبه ما يحدث لهذه الشجرة، فأنت تعمل وتبذل الوقت والجهد وتقدم ما في وسعك كي ترى النمو والنضوج، ولكنك لا ترى شيئًا لمدة أسابيع أو شهور أو حتى سنوات، لكن إذا كنت صبورًا وداومت على العمل والرعاية فسوف تأتي «السنة الخامسة»، وسوف تنبهر من النمو والتغيير الهائل اللذين سيحدثان، الصبر هو تطبيق عملي للإيمان، والصبر هو المثابرة الوجدانية، وهو الاستعداد للمعاناة الداخلية حتى يصبح من تحب مدركًا، وأن يكتشف الحب والفهم الذي تحيطه بها.

وداخل كل منا هذا الحنين الدافئ «للسكن»، للعلاقات والتفاعلات التي لا وجود لها إلا في الحياة الأسرية الجميلة، ولا يجب أن نستسلم أبدًا مهما انحرفنا عن المسار، حاول دائمًا العودة إليه، تشجّع مهما ابتعد ابنك وابتتك، تشبث به / بها ولا تستسلم فأبناؤك قطعة منك، وفي النهاية سيعود الابن الضال وستسترده إن شاء الله .

وجميعنا يدرك في قرارة نفسه مدى أهمية الأسرة، وعندما سأل ستيفن كوفي جمهوره في شتى بقاع العالم عن أهم ثلاثة أشياء في حياتهم، وضع 95٪ منهم الأسرة أو العلاقات الأسرية في القائمة، ووضع 75٪ منهم الأسرة على رأس القائمة، فأمتع لحظات حياتنا وأشدها ألمًا تتبع من حياتنا الأسرية، وهناك عبارة تقول: لا توجد أمٌّ تشعر بسعادة عندما ترى تعاسة أبنائها، وكلنا نشد الصواب ونبحث عن البهجة في أسرتنا ونعرف أنها ممكنة التحقيق، ومن الطبيعي أن يتوفر الحب والبهجة في الحياة الأسرية، وكما يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21]، هذه الكلمة (لتسكنوا إليها) مليئة بمعاني السكينة والطمأنينة والدفء الأسري، ولكن عندما نستشعر الفجوة بين ما نصبو إليه وبين الواقع الذي تعيشه أسرنا يوميًا نشعر أننا خارج المسار - خارجه بكثير، يقول كوفي: من السهل أن تصاب بالإحباط وأن تفقد الأمل، وأن تشعر أنه ما من طريقة للوصول إلى ما تريده في حياتك الأسرية، أما في الإسلام - وفي الأسر التي فيها زوج ملتزم أو زوجة ملتزمة - فالوصول إلى هذه المشاعر وهذا السكن وهذه البهجة ممكن جدًا، ويستكمل كوفي: لكن هناك أمل، أمل عظيم، ومفتاح ذلك الأمل هو أن تتذكر دائمًا المداومة على العمل من الداخل إلى الخارج، والعمل على العودة إلى المسار الذي انحرفنا عنه، وأن تتذكر أن أسرتك هي أهم شيء في حياتك، ابدأ بنفسك، وابدأ اليوم ليس غدًا.

